مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديميةISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2021 المجلد: 04 العدد: 02 عدد خاص ص.ص:1058-1073

الأبعاد النفسية للمكان في شعر محمد الصالح باوية ديوان أغنيات نضالية أنموذجا

Psychological dimensions of the place in the poetry of Muhammad Al-Saleh Baweya Poetical works of struggle songs as a model

إيلياس قاضي[1*] ، جامعة وهران1، (الجزائر)، ilyeskadi13@gmail.com

نوردين زرادي[2]، جامعة وهران1،(الجزائر) ، nourzerradi59@gmail.com

تاريخ إرسال المقال: 2021-08-15 تاريخ قبول المقال: 2021-09-10

الملخص:

الشعر ولود في استنطاق كوامن النفس السحيقة، غزيرة العمق والمعنى، التي لا يطالها إلا شاعر متمرس فتصوير خلجاتها يحتاج إلى لغة منتقاة وإلى استحضار بنيات فنية مختلفة، فالشاعر محمد الصالح باوية في ديوانه الموسوم "أغنيات نضالية " اتكأ على استجلاب المكان بشكل كبير لما له من دلالات مجاورة للأبعاد النفسية ولما له من قيم فنية وجمالية فتنوعت الأماكن بين ضيقة وأخرى مفتوحة كالكوخ والقبو والحقل والساحة ليعبر بها عن عواطف مختلفة كالشكوى والقهر والتحفيز والتحدي.

الكلمات المفتاحية: الشعر، بنيات فنية، المكان، الأبعاد النفسية.

Abstract

Poetry deffinetly reveals the soul's buried emotions that are rich in connotation and significance which cannot be touched except by and experienced poet who depicts its stories with a purified language and evoking different artistic constructions. Our poet Mohammed Saleh Bawya in his poetry collection entitled "Struggle Songs" relied excessively on Place because of its adjacent connotations to psychological dimensions and because of its artistic and aesthetic values, thus the Place varied between tiny and open ones such as the hut, the basement, the field and the yard just to express different emotions as complain, oppression, motivation and challenge.

Key words : Poetry, artistic constructions, place, psychological dimensio

* إلياس قاضي.

مقدمة:

لقد أورد الشعراء المكان كثيرا في قصائدهم، لما يحويه من أبعاد نفسية يحددها المجتمع حسب ثقافته وأعرافه وعاداته ومعتقداته، وهي بدورها ترتبط بالزمان "تنسب وحدة المكان والزمن لفعل الذات حين نقوم بربط لحظات الزمن المتناهية القصر وأجزاء المكان شديدة الصغر بالتوجه والغرض والاهتمام فضلا عن الطبيعة التكرارية المتواترة للوقائع والأحداث، وكل هذا يتم وفقا للخبرات الزمنية والمكانية السابقة، سواء كانت خبرة فردية أو إنسانية عامة"[1].

ثم إن القدامى استحضروا الفضاء كثيرا، حيث افتتحوا بالطلل قصائدهم في ثلاثية جمعت بين المكان (الديار القديمة) والزمان (الماضي) والبعد النفسي (الحنين).

وقد تضاربت آراء النقاد حول الفرق بين المكان والفضاء، ولعل الخيط الفاصل بينهما هو أن الأوّل يُرى بالعين، وهو الذي ينصرف مفهومه إلى الموضع الجغرافي والهندسي، والثّاني يُدرَك بالبصيرة والعقل، وهو مجموع القيم التي يحتويها المكان، وهي قيم ثقافية ودينية وغير ذلك.

وبالتالي المكان " مدخل مهم لدراسة النصوص الأدبية، لا سيما الشعر وبيان أبعادها الفنية والجمالية، فمن خلاله تتشكل الأحداث وتتحرك الشخوص وتتفاعل في دورة لا تنتهي من التأثر والتأثير بين الكون والإنسان والطبيعة"[2].

الشاعر محمد الصالح باوية في ديوانه الموسوم " أغنيات نضالية "، أكثر من ذكر المكان ونوع فيه حسب ما تقتضيه الحالة الشعورية فنجم عن ذلك أبعاد نفسية شتى ونظرا لتشعب مسارات دراسة المكان في الرؤى النقدية الشعرية ونشير أن دراستنا للمكان تهدف إلى كشف هذه الانفعالات ومدى علاقتها بالمكان وقد استعنت بالمنهج النفسي التحليلي فهو الأنسب لهذه الورقة البحثية وعلى ضوء ما تقدم سنحاول الإجابة على بعض التساؤلات وهي كالآتي:

هل للمكان علاقة بالذات البشرية وآهاتها النفسية؟ وإذا كان كذلك فهل نجح الشاعر في اختيار الأمكنة المناسبة لكل حالة نفسية؟ وما هو البعد العاطفي الغالب على قصائده؟

المبحث الأول: قراءة في العتبات النصية للديوان

المطلب الأول: التعريف بصاحب الديوان

ولد الشاعر الشهيد محمد الصالح باوية ببلدة المغير (ولاية الوادي)، وبعد أن تلقى بعض تعليمه الابتدائي بها وحفظ القرآن العظيم، التحق بمعهد ابن باديس بقسنطينة، من حيث نال شهادة "الأهلية" سنة 1952 وكان من أوائل الطلاب الذي أفادوا من منح الدراسة، التي تبرع بها الكويت للطلبة الجزائريين بسعي من الشيخ محمد البشير الإبراهيمي...من حيث نال شهادة الثانوية وذلك سنة 1957 وهي الشهادة التي أتاحت له التسجيل سنة 1958 بكلية العلوم بجامعة دمشق، ثم التحق ببلغراد بيوغوسلافيا من حيث نال شهادة الدكتوراه، ولم يلبث أن تخصص في طب جراحة العظام، بجامعة الجزائر سنة 1979 وقد كان طبيبا جراحا للعظام في مستشفى البليدة وقد توفي في ظروف غامضة فرحمه الله.

أما عن مؤلفاته فهو يعد أحد أكبر الوجوه الشعرية في الجزائر على عهد ثورة التحرير، فجمع كل أشعاره المعروفة في ديوانه الوحيد : "أغنيات نضالية"[3].

المطلب الثاني: قراءة العتبات النصية للديوان

1- دراسة العنوان :

عنون الشاعر ديوانه ب "أغنيات نضالية" هذه البنية الافتتاحية، عبرت بشكل صريح عن دهاليز الكتاب ومداخله فالعنوان لم يكن غامضا، بل جاء سهلا واضحا بينا قصيرا من كلمتين فقط ، فالمطلع على الديوان يجد جل قصائده أو كلها تصب في مضمون واحد، هو الدعوة إلى الثورة والكفاح فناسب العنوان شعره الثوري فعبارة "أغنيات" اشتهرت بها الساحة الثورية حيث كان المجاهدون ينشدون أغان ثورية للتحفيز وقد كثرت في الأوساط الشعبية خاصة في الشعر الشعبي فوظفها الشاعر عنوانا لديوانه حتى يلفت إليه كل محب للدفاع عن الوطن ليطلعه على تجربته الشعرية والتي تصنف ضمن الأدب الهادف ويكون من السباقين في تأسيس الشعر الحر بالجزائر.

2- الإهداء :

أنتم، يا من تؤمنون بالدم واللهيب دربا، مخلصا، وحيدا للحرية الغالية.

أنتم، يا من عمقتم معنى الإنسان..

يامن عمقتم معنى الخلق والتضحية في الإنسان

يا أغلى مليون ..يا أغلى نصف مليون ..

يا قرابين الحرية ..

يا أعلى قمة مجد في بلادي

منكم ..وإليكم أرفع هذه الأغنيات النضالية .

محمد الصالح باوية[4]

الإهداء يعد كذلك من العتبات الفنية التي نعرف من خلالها الآخر الذي سيهدي إليه عمله، فلا يكون الإهداء إلا تعبيرا عن الحب في الغالب، فمعرفة الآخر من خلال هذه البنية يكشف لنا بعضا من ذات الشاعر، فعلى غير العادة التي ينتهجها الكثير في هذه البنية وهي إهداء العمل للوالدين والمقربين، نجد الشاعر يهدي عمله للثوار والمجاهدين ويوظف ضمير المخاطب "أنتم" ليعبر عن فحوى هذا الإهداء، ويستخدم أسلوب النداء "يا" ويكرره فهو يعد من الأغراض البلاغية ذات القيمة الجمالية، بهدف لفت الانتباه والتأكيد على ضرورة تبجيلهم ودعمهم وأن هم سبب الحرية فقوله:

يا من تؤمنون باللهب والدم دربا ومخلصا للحرية، يعكس توجهه الثوري وأنه من مؤيدي الكفاح المسلح لأنه كان هناك في الساحة النضالية من يدعو إلى الحل السياسي.

ثم يزيد في مدحهم والثناء عليهم، وذلك في قوله:

يامن عمقتم معنى الإنسان / يامن عمقتم معنى الخلق والتضحية. فالشاعر رأى بأنهم على خلق جم، والتضحية أرفع وأنبل خلق يتحلى به المخلصون، كيف لا وقد بدلوا أنفسهم فداء الوطن ، واعتبرهم الشاعر قرابين للحرية . ولفظة قرابين زادت من شعرية هذا الإهداء وقربت المعنى بشكل كبير، فالقربان شعيرة دينية يقدمها كل مجتمع لمعبوده، وغالبا ما تكون أفضل ما يملكون لكن القربان الذي قدمه هؤلاء هو غال ثمين ألا وهو أرواحهم .

و يقصد بالثوار هنا الجزائريين الذي ماتوا زمن الثورة، التي اندلعت في الأول من نوفمبر من العام 1954 والتي راح ضحيتها قرابة المليون ونصف المليون ممن نحسبهم من الشهداء، وقد اعتبرهم الشاعر أعلى قمة المجد وأنه لا يطالهم أحد فيرى أن ديوانه هذا قطعة منهم وإليهم وهم الأحق بهذا الإهداء.

3- سيمائية الغلاف:

يعتبر غلاف الكتاب أول عتبة نعبرها قبل الدخول إلى العالم الداخلي الذي يحتويه الديوان بين دفتيه، إنه الوجه الأول الذي ننظر إليه قبل أن نعرف المحتوى والمضمون الذي تحمله الصفحات التي تلي ورقة الغلاف الأول، إن الغلاف عتبة تفضي بنا إلى الداخل، إنه الوجه الذي يطالعنا في الأول قبل الذهاب والسفر بين سطور الصفحات، يمكن أن يجذبنا غلاف كتاب معين فنشتريه، حتى قبل اطلاعنا ومعرفتنا بمضمونه لجماليته ولرونقه، فيثير إعجابنا.

والكتاب الذي بين أيدينها هو ديوان أغنيات نضالية، للشاعر محمد الصالح باوية، وقد جاء الغلاف فيه بلونين بارزين اللون الأحمر الذي تتوسطه طلقة سوداء ترمز للرصاصات المنطلقة منه فيتطاير منا دم العدو الغاشم بلون أحمر بارز، قد يرمز تارة لدماء الشهداء وتارة لأثار طلقاتهم النارية، ويأتي بالأعلى اسم الشاعر بلون أسود بمستطيل أصفر، كأنه يرمز لأنّ الشعراء هو قلم النضال وهم لسانه الناطق به والمعبر عن أحاسيسهم ونضالاتهم، وفي الوجه الآخر للغلاف اللون الأخضر القاتم الذي يدل على الثبات والغِنى، والحصول على الحرية بعد نضال كبير حسب الشاعر هنا، فغلاف الديوان يحوي دلالة واضحة بأنه رمز للنضال والثورة.

المبحث الثاني: البعد المأساوي للمكان

إن أهمّ ما يميّز الذّات البشرية اكتنازها على خصيصة متفردة هي النّفس، والتي بدورها تتميز بانفعالات وعواطف عديدة تظهر حسب الظروف المحيطة بها، فهي تحب من يمدحها ويثني عليها وتكره من يهينها ويزدريها وتسخط وترضى وتستحسن وتستقبح إلى غير ذلك، ولها عوارض تكشفها فانطوائها وبكاؤها يدل على حدث ألم بها أو غبن مسها والفرح والسرور يكون بانبساط وجهها وانشراح صدرها، وقد جاء في الصحاح للجوهري أن النفس لغة " هي الروح والنفس الدم يقال سالت نفسه والنفس تعني الجسد، والنفس العين يقال أصابت فلانا نفس ونفسته بنفس إذا أصبته بعين والنفس، أيضا الجرعة يقال أكرع في الإناء نفسا أو نفسين أي جرعة أو جرعتين"[5].

وقد وردت النفس في القرآن الكريم في أكثر من موضع قال تعالى: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿7﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿8﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿9﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿10﴾[سورة الشمس، الآية:10]، أي فيها نوازع خير ونوازع شر فمن زكاها نجا وأفلح ومن دساها خاب وخسر"، أما النفس اصطلاحا فقد اختلف العلماء في مفهومها، ونذكر اختصار لذلك تعريفا للشريف الجرجاني: "النّفس هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وسماها الحكيم الروح الحيوانية فهي جوهرها المشرق للبدن فعند الموت ينقطع هواؤها عن ظاهر البدن وباطنه وأما وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه"[6].

وإذا ما رام الباحث استجلاء الأبعاد النفسية في شعر محمد الصالح باوية، سيلحظ أنه تميز بشحنة عاطفية عالية حيث جاءت قصائده ثورية حماسية تارة و محزنة مليئة بألوان الأسى والجراحات تارة أخرى، فتجده مرة يتلذّذ بنشوة الانتصار والتّحدي وحينا يتألّم من نيران الإستدمار، وكل ذلك راجع لحسّه المرهف وحبّه لوطنه وغيرته عليه فتلفاه يخاطب النفس والعقل معا من أجل لم الشمل والالتفاف حول الثورة في سبيل إزاحة هذا العدوان"، إن القواعد النّفسية الفعالة في أي خطاب لغوي تقتضي خطاب القلب والعقل

في آن واحد وعدم الفصل بينهما حتى يتغلغل فحوى الخطاب في عمق النفس ويتجذر فيصير راغبا نحو ما يدعو إليه الخطاب ونافرا عن كل ما ينهي عنه"[7].

ولتحقيق ذلك اتكأ الشاعر على توظيف المكان، لما يحمله من أبعاد نفسية وقيم جمالية و فنية تجعل المشهد الشعري حيا حارا وكأنه منظور لدى المتلقي "فإحياء المكان عنده ليس إحياء ماديا وحيزا محددا، بل هو إثارة فكرة، وترسيخ قيم ومبادئ اجتماعية وثقافية ووطنية، تعالج الواقع وتمتع نظرة تبصر ومشعل أمل للراهن والآتي، ويصير قانونا يعتد به داخل البيئة الاجتماعية، ويتحول إلى موروث وإرث يحفظ ذاكرة المجتمع ، كل هذه التراكمات المادية من أمكنة وما تنطوي عليه من قيم اجتماعية ووطنية وتاريخية يتفاعل معها أفراد المجتمع"[8].

يتناول هذا المبحث بعدا نفسيا عميقا عمق النّفس البشرية ألا وهو المأساة بأنواعها وأشطرها، فالشّاعر جعل لهذا الظاهرة أماكن تناسبها في سياق يتواشج فيه اللفظ والمعنى فأكثر من الأماكن الضيقة الهشة حينا ومن الأماكن المفتوحة الموحشة حينا آخر منها: الكوخ، الغابة، القبو، المدخنة، الخيمة.

المطلب الأول: الشكوى

إن أول وطن يحتضن المرء بعد ولادته هو المنزل "فالبيت جسد وروح وهو عالم الانسان الأول ويعد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات وأحلام الإنسانية، ويمنح البيت ديناميات مختلفة كثيرا ما تتداخل أو تتعارض وفي أحيان تنشط بعضها بعضا في حياة الإنسان ينحي البيت عوامل المفاجأة ويخلق استمرارية، ولهذا فبدون البيت يكون الإنسان مفتتا، إنه البيت يحفظه عبر عواصف السماء وأهوال الأرض"[9] 8 قصيدة الحلقة الضائعة تعبر عن الظروف الصعبة التي عانى منها الشعب الجزائري والتي فقد فيها أثناء الحقبة الإستدمارية أبسط حقوقه منها المسكن اللّائق يقول:

وحدي أنا ...
يقتات مني كل شيئ
حتى الأحاجي...والدجى
والثلج...والكوخ الغبي
وحدي أنا
قربان عصر ...وإله[10]

الشّاعر في هذه القصيدة يتحدث عن عذابات أهل القرى والمداشر فقد تعرضوا للممارسات القمعية من طرف العدو، لأنهم كانوا يشكلون مصدر تهديد وقلق دائم للفرنسيين فأغلب المجاهدين خرجوا من هذه المناطق، الشيء الذي أدى إلى عزلهم وتشديد الرقابة عليهم، فعبر عن هذه الحال بقوله:

وحدي أنا يقتات مني كل شيء،

وهذه استعارة مكنية دلت على عسر الحال وأنه يؤخذ منه ولا يعطى له والبيئة هي الأخرى لم تسعفه فالثلج مع سوء المأوى المتمثل في الكوخ زاد من حجم المعاناة.

ولهذا المكان أبعاد نفسية محزنة فهو يدل على العزلة والشظف وقلة الحيلة، فالبيت الواسع بخلاف البيت الضيق وأدناه الكوخ فليس بعده إلا التشرد، والكوخ يدل على انعدام الأمن فاستحضار الشاعر لهذا المكان زاد من تقريب الحالة النفسية بشكل كبير.

المطلب الثاني: الاغتراب

الغربة شديدة على النفس البشرية فهي تنجم عن الترحال ومغادرة الوطن، فلا تجد من ألفتهم وعرفتهم فكل من حولها غريب غير معروف "للمكان دور مميز في إحداث رؤية واعية لعذابات الروح ومعاناتها عبر رحلتها في هذا الكون، فالمكان يحدث في نفس الشاعر المغترب فجوة نفسية وصرخة مؤلمة تعبر عن الواقع غير المنسجم مع الذات، إذ نلمس خلف أستار المكان صيحات دفينة توحي بمعاناة التوتر والاضطراب والقلق"[11].

ولعل أسوء غربة هي التي تكون داخل الوطن في قصيدة يوميات تبحث عن يوم، يحدثنا الشاعر عن هذا الألم يقول في قصيدة المخاض:

أسائل أمسياتي ...وانطواءاتي العائلة

أسائل كبريائي

ثم أشيائي الحبيبة

أسائل كرمتي وسنابل الحقل الوحيد

ثم مزرابي ومحراثا عنيدا في وجودي

أسائلها جميعا عن عذابات وجودي[12]

الأصل في الوطن أن يكون المأوى والحضن الذي يخفف من نوائب الدهر وتاراته، إلاّ أنّه عند الشاعر باوية، أصبح موحشا مؤلما فازداد وجعه وكبرت دهشته، إذ كيف يعقل أن يصبح المكان الذي ولد فيه قاسيا لهذه الدرجة.

الشّاعر في هذه القصيدة يتساءل عن وجوده ويبحث عن جواب شاف حول ما يحدث له، موجها السؤال للجماد الذي اجتمع في حقله من محراث ومزراب ونباتات من سنابل وكروم، فهذا المكان أي الحقل يعبر عن قسوة العيش فبقائه مرتهن بغلته، والتي هي الأخرى مجهولة المصير لأن العدو الفرنسي سيفرض عليه الضرائب وقد يحرق هذه الممتلكات، فهو وإن كان يملك إلا أنه يعي أنه قد يفقد كل شيء في لحظة واحدة، فاستدعاء الشاعر لمكان الحقل ووسائله البدائية، التي تمثل تراثا شعبيا محفورا في الذاكرة الجماعية للأمة الجزائرية هو تعبير عن هويته، فالحقل وإن كان يمثل العناء في الكسب، إلا أنه رمز الوجود وأن لديه رقعة باسمه في وطنه، فأراد بتساؤله عن عذبات وجوده هو هذه المفارقة العجيبة، بحيث أن من الطبيعي أن يكون المغترب مهمشا مضطهدا بخلاف صاحب الأرض لكن حدث العكس.

المطلب الثالث: الأسى والخوف

النّظرة المأساوية هي: "درجة استحالة قدرية تلازم بطلا يعي مصيره ولا يستطيع أن يغيره بغير الخضوع لميثية ميتافيزيقية يقتضي فهمها على فترات تاريخية واجتماعية وأدبية"[13] 12.

إن الواقع المرير الممتد لسنوات وعدم وجود أي آلية لرفع هذا الظلم، ولد شعورا باليأس وأكسب الشاعر هذه النظرة المأساوية للحياة يقول في قصيدة يوميات تبحث عن يوم:

في الليلة الليلاء

في الملحمة الخضراء

في قبو الأسى واللعنة السوداء

في مدخنة مقفرة الأمعاء

في صومعة متعبة الإسراء ...

عيني أبحرت تروي لكم[14]

في هذه القصيدة مجموعة من الأماكن الضيقة فالقبو مكان ضيق مخيف موحش والمدخنة سوداء، هواؤها غير عليل والصومعة أيضا ضيقة.

هنا الشّاعر تدرج في ذكر هذه الأماكن لوصف حالته النفسية المتعبة التي ضاق بها صدره، فعبر عنها بالقبو هذا المكان شديد الظلمة تخافه النفس، فمن يدخل القبو يشعر بوجود أشباح أو يحس وكأنه يسمع صوتا وغالبا تكون الأقبية بلا إضاءة فيلجأ المرء للشمعة والقنديل، فبقدر ما يضيئ بقدر ما تكثر الظلال المتحركة فيزداد الرعب، أما المدخنة ربطها بالأمعاء المقفرة بمعنى قلة الطعام الذي يطهى في موقدها، وبالتالي عبر بالقبو عن الخوف والمدخنة عن قلة الزاد، ثم يأتي على ذكر الصومعة كمدد للسماء،

لكنها هي الأخرى متعبة لم تسر بكلماته ولم تؤت أكلها، فهذه الحالات النفسية نستشف منها مدى جبروت الاستدمار الفرنسي وسطوته "لقد أصبح الانسان يستهدف أخاه الانسان ويحاول الهيمنة عليه فكريا واقتصاديا وسياسيا، وبهذا لم يعد الخوف مسألة نفسية فحسب، بل أصبح يشمل أبعادا ثقافية اجتماعية وتاريخية وأخرى أدبية وبات ثقافة تتراءى في أنماط الابداع التكنولوجي والفني والأدبي على حد سواء"[15] 14.

المطلب الرابع: القهر

إن مصطلح القهر"مشتق من الأصل اليوناني لكلمة إرغام من ثم فهو دفعة داخلية يصعب مقاومتها بعبارة أخرى نمط من النشاط يقوم به الشخص تحت وطأة دفاعات داخلية إذ يؤدي عدم القيام بها إلى اشتداد وطأة الحصر وكأن القهر بقدر ما هو داخلي بقدر ما فيه من إلزام وإرغام وإن لم يكن الإرغام لازما في المستوى الشعوري خارج إطار الوسواس القهري فهو يحدث في إجبار التكرار"[16] وبالتالي هو حالة نفسية عظيمة شديدة الوطأ يعبر الشاعر عن هذه الحالة في قصيدة الصدى يقول:

وتمضي السنون
وأذكر يا طفلتي الوادعة
بعينيك أنت ..
بعينيك ترعش مأساتيه
وترقد " يافا" و" حيفا" وأصحابية
بعينيك عمق كثيف الظلال
رهيب يغلف ألف سؤال
تطاردني
تصارع ذلي وغطرستي
تمزق ليلي ..
وتغزو وجودي في خيمتي[17]

فالشّاعر في هذه القصيدة يعطي بعدا تعدديا ثقافيا، من خلال المكان فيافا وحيفا مدن فلسطينية تعرضت للتدمير من طرف اليهود ليحي في القارئ ويبث فيه القومية العربية ويذكره بالجرح الأكبر، وأن مرارة الاحتلال الفرنسي لن تنسينا في فلسطين الحبيبة وأن العلاقة بيننا وبينها كعلاقة الأب ببنيه، ويعبر عن هذا الوضع البائس باستحضار الخيمة فهي تدل على القهر والعوز والبعد كما تحمل دلالات الضعف وقلة الحيلة فبنائها يعجز عن مقاومة الظروف الطبيعية ويتحطم مع كل ريح، فناسب ذكر الخيمة حاله فربطها ضمن نسيج

لغوي عامر بمعاني القهر والغلبة والارغام (ترتعش، تطاردني، تصارعني، ذلي، تمزق ليلي) ونخلص إلى أن هذه القصيدة تواشج فيها المكان مع حسه القومي فأطلعنا عن مدى قهره سواء من بعيد أو من قريب فلا الجزائر سالمة ولا فلسطين آمنة..

المبحث الثالث: البعد التحفيزي للمكان

تحتل الجزائر من ناحية المساحة المرتبة الأولى إفريقيا وعربيا، فهي تزخر بمناظر طبيعية خلابة فشمالها يحتوي على سلاسل جبلية وبحر ممتد وشلالات وكهوف وهناك تنوع حيواني، كما أنه توجد غابات كثيفة من أشجار السرو والزيتون والصنوبر، أما جنوبها يحوي صحراء هائلة بها مناطق أثرية قديمة جدا وبها أجود التمور، كما أن الصحراء الجزائرية تتفرد عالميا بأروع منظر لغروب الشمس وبالتالي جوها يشهد الفصول الأربعة بريحها خريفا وثلجها ومطرها الغزير شتاءا وبهجة زهرها ربيعا وشمسها الساطعة صيفا هذا الوطن الرحب حز في نفس الشاعر تضييعه وتركه سائغا للأوغاد فقام يستنطق الطبيعة في شعره ليذكر من حوله أن الجزائر أعظم من نفوسنا.

المطلب الأول: التحدي

الشّعراء الجزائريون لم يهتموا بالطبيعة كثيرا في شعرهم إلا نزر قليل منهم فأرجع بعض النقاد هذا النقص إلى الاهتمام بمشاكل الشعب يقول الدكتور عبد الله الركيبي " الذي يلفت النظر حقا في الشعر الجزائري هو أنه قليل الحديث عن الطبيعة بالرغم من أن الجزائر تزخر بشتى المناظر الطبيعية الخلابة ولعل اهتمامهم بمشكلات الشعب هو الذي جلب انتباههم وجعلهم لا يلتفتون إلى النواحي الأخرى"[18].

الشّاعر محمد الصالح باوية كان استثناءا، فالطبيعة شكلت له مادة خام عبر بها عن نوازعه فقد سحرته بشساعتها وعظمتها، حيث أيقظت فيه كوامن القوة والعظمة والتحدي، فوظفها بكثرة في ديوانه يقول في قصيدة إنسانية الطريق:

إن أنا غبت طويلا وصحا طفلي ورائي خبريه إن دعاني

خبريه، إنني في الكهف في الساحة في الحقل وفي كل مكان

مدفعي يا خلجة الشعب دعاني جبل الأوراس دعاني جبل الأوراس للثأر دعاني[19] 18.

يستحضر الشاعر في هذه القصيدة أماكن عدة (الكهف، الساحة، الحقل، جبل الأوراس) وقد استخدمها حتى يعبر بها عن حالة نفسية تتمثل في التحدي والتربص للعدو وحاضرون في كل شبر من الوطن ويزيد من هذا الحرص والتحدي بقوله:

في الساحة/ في الحقل/ وفي كل مكان، وذلك كناية عن المراقبة اللصيقة ونحن فوقكم وأسفل منكم.

ونرى تسلسلا في توظيف المكان من الأضيق إلى الأرحب فبدأ بالكهف ثم الساحة ثم الحقل ثم ينتقل إلى أعلى باستحضار جبل الأوراس الذي شكل شريانا وسندا للثوار الجزائريين، فالكهف وإن كان يحمل في طياته العزلة إلا أنه جاء هنا بمعنى التحمل وتحدي الظروف الطبيعة، ويحتمل قوله إني موجود في الساحة والحقل والجبل بأنه ليس جبانا، فاستحضار الشاعر لهذه الأماكن إلا ليري العدو مدى تحديه وتعطشه للثأر.

المطلب الثاني: التحفيز والدعوة لرفع الغبن

يُعدّ الغبن من الحالات النفسية الشديدة على المرء وغالبا ما ينجم عن الواقع المرير والغبن درجات ينقص ويزيد حسب الأوضاع التي تكون سببا في تكونه ونشأته، ثم إن الغبن إذا كان فرديا قد يخف بالمواساة والمساعدة المعنوية والمادية من المقربين لكن الحديث هنا هو عن غبن جماعي لم يسلم منه إلا خائن وذلك زمن الاستدمار الفرنسي "إنا لا نتصور شعبا تعرض للإبادة الجماعية ودون مبررات يقتنع بها عاقل ومتحضر، وإنسان، أمام أنظار العالم المتواطئ على الضعفاء وعلى مرأى من التاريخ الخامل كما تعرض الشعب الجزائري للتقتيل منذ اليوم الأول الذي وطئت فيه أقدام الفرنسيين الجزائر، وعبر فترات متلاحقة من التقتيل تخف وتقل حينا، لتعود فتشرس وتتكاثر أحيانا أخرى"[20].

هنا الشّاعر محمد الصالح باوية يدعوا إلى التضافر وحشد كل الوسائل لرفع هذا الغبن، يقول في قصيدة الانسان الكبير:

يا زغاريد اعصفي

ياهتافات اقصفي

انفضي الدهليز والأكواخ.. تجتاز الرياح

سوف ينمو البرعم الخلاق في الجرح السجين[21]

يعد النداء من ضروب البلاغة وقد جاء به الشاعر بغرض التنبيه والحث على الثورة في قوله: يا زغاريد / يا هتافات.

فالدعوة هنا موجهة للنساء والرجال معا، كما نلمس من خلال الأبيات حضور المعجم الثوري: اعصفي/ اقصفي/ انفضي.

هذا التحفيز جاء لرفع الغبن الذي جاء نتيجة السياسات القمعية من لدن السلطات الإستعمارية على الشعب الجزائري، الذي أكثرت فيه المحتشدات والمعتقلات والسجون والعزل فضيقت ونغصت عليه حياته كأنه محجور داخل دهليز، وقد ائتلف اللفظ والمعنى فالغبن يكبح النفس ويطوقها والدهليز ممر ضيق طويل غير مريح لشدة الظلام فيه ويطلق عليه كذلك السرداب أو القبو، يقول غاستون باشلار عن مثل هذه الأماكن

الضيقة: " إن الوعي هنا يسلك كرجل سمع صوتا مريبا في القبو فأسرع إلى العلية وحين لم يجد لصوصا فيها قدر أن ما سمعه مجرد وهم في حقيقة الأمر أن هذا الرجل لم يجازف بدخول القبو"[22].

الشّاعر صوّر لنا الحالة النفسية المزرية للأمة الجزائرية آنذاك، باستحضار مكان الدهليز الذي دعا إلى تحطيمه فكانت القصيدة تحفيزا من أجل تحقيق الحرية.

المطلب الثالث: الصبر

الذّات البشرية ترتبط بالواقع بشكل قوي فبينهما علاقة تأثير وتأثر فكانت ثنائية الذات والواقع من بين أبرز المسائل الشائكة في التحليل النفسي" إن هذه الثنائية تتولد بصورة ديناميكية انطلاقا من نقطة عمياء وعبر نوع من العملية الجدلية بين اللذة والألم وفي النهاية يبدو الواقع بمثابة دالة تنبئ عن علاقة الذات بموضوعها " فالداخل" والخارج "يعرف كل منهما الآخر.. وهو ما يسمح لكلمة واقع أن تعرف نفسها تبعا لطبيعة التعارض في كل لحظة"[23].

فواقع الشعب الجزائري هو استدمار فرنسي يكبل حريته و يعارض طموحاتها ويحرمه ملذاته، مما جعل الشعب يتّخذ أساليب أخرى لمجابهته، فاستند إلى القتال مرّة وركن إلى الحلول النفسية تارة أخرى منها الصبر فهو يعد قيمة أخلاقية تطوع الواقع، لأنهم متأكدون أنه لن يدوم على هذه الحال وأن الأصل فيه التغير والتبدل، وبالتالي الصبر ينفع مع ما هو متغير بخلاف الثابت يقول في قصيدة الرحلة في الموت:

يسقي الحروف الخضر
في زنزانة الصبر
لعل الحرف يعطي نكهة التمر...
عسى،
يرجع للعين علامات القمر
يابائع الشيح انتظر..[24]

في هذه القصيدة يستحضر الشّاعر الزنزانة من خلال إيرادها ضمن صورة بيانية تتمثل في (تشبيه بليغ إضافي)، فالزنازين كانت ولازالت أداة فعالة في تطويع المعارضين، ففيها يتم تسليط أنواع من العذاب وهي من المؤسسات القديمة في التاريخ البشري وقد ذكر السجن في القرآن الكريم زمن مصر القديمة، والأصل فيها كبح المجرمين والمخالفين للقوانين والنظم الاجتماعية، لكن فرنسا جعلتها مأوى للثوار والأحرار ظلماوعدوانا، فالسجن قبر الأحياء وفيه الرتابة والأيام نفسها، مما يجعل المكان موحشا متسما بالوحدة في

كل شيئ فليس لنازليه سوى الصبر رادعا ورادا لهذا الألم، وبالتالي قيمة الصبر هي من المثل العليا التي يتحلى ويتجمل بها المجاهدون لما لها من ثمار وفوائد فهو يزيد المرء حكمة ورزانة .

المطلب الرابع: الثأر

طالما كانت الغابة مأوى المعارضين وعرين المجاهدين فموقعها المعزول وتضاريسها الصعبة جعلتها غير مأهولة وهذا ما أهلها لتكون ملاذا آمنا أيام الحروب والصراعات فأغلب المعارك تقع على الجبال، فهي بيئة خصبة لكل جماعة مفارقة سواء كانت على حق أو على باطل الشاعر في قصيدة الإنطلاق يأتي على ذكر هذا المكان ليعبر عما يختلجه يقول:

رحت أهوى بوجودي
بأعاصير الزمان
وبحقد الغابة السوداء
والقرن المهان
رحت أنقض بشوق وأغان
رحت أنقض على التنين والأصنام
في كل مكان الانطلاق[25].

في هذه القصيدة وظف الشاعر أسلوب التكرار، لأنه يعد من عناصر التماسك النصي وهذا التكرار لم يكن مبتذلا وإن تكرر اللفظ، إلا أن المعنى تغير بسبب تغير السياق.

فكلمة رحت التي تكررت عبرت عن غيض وتعطش كبير للثأر، فاستحضر الغابة ليعبر عن هذا البعد النفسي وذلك في قوله:

رحت أهوى بوجودي / وبحقد الغابة السوداء.

اللون الأسود له رموز عدة فأحيانا يوظف تعبيرا عن الهموم والأحزان وحينا يكون للموت والفقد وتارة للوقار والهيبة، وهذا اللون يكون أكثر سوادا في الغابة إذا جن الليل، وهذه الشدة في السواد الدالة على الغياب التام للنور هي نفس شدة توقه للثأر الذي يملأ قلبه فإيراده لمكان الغابة أتى ليقرب للمتلقي هذا الشعور العامر بالغيض تجاه المستدمر.

الخاتمة:

وختاما يمكن القول في الأخير بأن المكان له علاقة متينة بالحالات النفسية وتوظيفه يزيد من شعرية النص فيتضح المعنى للقارئ بشكل أقرب ويكسب القصيدة سحنة فنية وجمالية.

لقد أكثر الشاعر من ذكر المكان ونوع فيه حسب ما تقتضيه الحالة النفسية بتعبير فني مقصود فاستخدم الكوخ والقبو والغابة والخيمة للأسى والضياع والألم ووظف الكهوف والسجن والحقول للتحدي والتحفيز والمقاومة ثم نجد الشاعر أحيانا يتحدث عن مكان واسع لكن الشعور المصاحب له هو الغربة وحينا يكون المكان ضيقا لكن الحالة النفسية المنبعثة منه هي التحدي وكل ذلك حسب ما يقتضيه السياق.

القصائد حبلت بأبعاد نفسية مختلفة لكن مجملها كان ضمن مضمارين هما الألم واللذة فالأول تبطن بأنواع الحزن والأسى والشكوى والقهر والثاني تمثل في نشوة الانتصار والتحدي والمقاومة.

الشاعر رغم أنه يكتب ضمن ما يعرف بالأدب الهادف الذي يلتزم فيه بقضايا الأمة إلا أن هذا لم يشكل عائقا للإبداع الشعري بحيث لم يكبل حريته بل كان عاملا هاما في الإبداع فتميز بلغة قريبة من العقل والقلب معا وكذا بصدق التعبير وروعة التصوير وجلالة المضمون.

قصائده كسرت النمط الخليلي المعهود والذي دأب عليه كثير من الشعراء الجزائريين فأتت مخالفة لذلك ضمن ما يعرف بالشعر الحر.

الهوامش:

[1] الضوى محمد توفيق، مفهوم المكان والزمن في فلسفة الظاهر والحقيقة، منشأة المعارف الإسكندرية، 2003، ص78.

[2] معتز قصي ياسين، دلالات المكان في شعر حامد عبد الصمد البصري، مجلة الفنون والآداب العراق، العدد58، 2020، ص522.

[3] مرتاض عبد الملك، معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، دار هومة الجزائر، 2007، ص 289 _ 290.

[4] باوية محمد الصالح، أغنيات نضالية، موفم للنشر الجزائر، 2012، ص13.

[5] الجوهري أبي نصر اسماعيل بن حماد الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، دار الحديث، القاهرة، 2009، ص1157.

[6] الجرجاني علي بن محمد الشريف، التعريفات، مكتبة لبنان بيروت، 1985ص312.

[7] مزهود سليم، الدلالة النفسية للألفاظ اللغوية في الخطاب القرآني "حسن القول وسيئه أنموذجا"، مجلة طبنة للدراسات العلمية الأكاديمية، المركز الجامعي سي الحواس، بريكة الجزائر، المجلد 4، العدد1، 2021م، ص425.

[8] هامل بشير رمزية، المكان وجماليته، نماذج من الشعر الجزائري المعاصر، مجلة رفوف، جامعة دراية ولاية أدرار، الجزائر، المجلد9 العدد1، 2021، ص 225.

[9] باشلار غاستون، جماليات المكان، ت: غالب هلسا، ط2، دار النشر، بيروت لبنان، 1984، ص38.

[10] باوية محمد الصالح أغنيات نضالية موفم للنشر الجزائر سنة 2012 ص66.

[11] الفلاحي أحمد علي، الإغتراب في الشعر العربي، ط1، دار عيداء، عمان الأردن، 2013 ،ص85.

[12] باوية محمد الصالح، المرجع نفسه، ص69.

[13] علوش سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1 ، الكتاب اللبناني بيروت، 1985، ص40.

[14] باوية محمد الصالح، المرجع نفسه، ص106.

[15] عبيدات حسين محمد، تجليات الخوف في الشعر الأموي، ط1، وزارة الثقافة، عمان الأردن، 2015، ص57.

[16] طه فرج عبد القادر وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، ط.1، دار النهضة العربية، بيروت، ص369.

[17] باوية محمد الصالح، المرجع نفسه، ص38.

[18] الركيبي عبد الله، دراسات في الشعر الجزائري، ط1، دار المعارف، مصر، 1961م، ص49.

[19] باوية محمد الصالح، المرجع نفسه، ص34.

[20] مرتاض عبد المالك، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، ج 2، دار هومة الجزائر، 2009م، ص175.

[21] باوية محمد الصالح، المرجع نفسه، ص58.

[22] باشلار غاستون، المرجع السابق، ص38.

[23] بول لوران أسون، التحليل النفسي، ت: سبيلا محمد، ط3، منشورات الزمن الرباط، 2005 ص127.

[24] باوية محمد الصالح، المرجع نفسه، ص121.

[25] باوية محمد الصالح، المرجع نفسه، ص75.

قائمة المصادر والمراجع :

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

1. الكتب:

1. باشلار غاستون، جماليات المكان، ت. غالب هلسا، ط2، دار النشر، بيروت لبنان، 1984م.
2. باوية محمد الصالح أغنيات نضالية موفم للنشر الجزائر 2012.
3. بول لوران أسون، التحليل النفسي، ت: سبيلا محمد، ط3، منشورات الزمن الرباط، 2005..
4. الجرجاني علي بن محمد الشريف، التعريفات، مكتبة لبنان بيروت، 1985.
5. الجوهري أبي نصر اسماعيل بن حماد الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، دار الحديث، القاهرة، 2009.
6. الركيبي عبد الله، دراسات في الشعر الجزائري، ط1، دار المعارف، مصر، 1961.
7. الضوى محمد توفيق، مفهوم المكان والزمن في فلسفة الظاهر والحقيقة، منشأة المعارف الإسكندرية،2003.
8. طه فرج عبد القادر وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، ط.1، دار النهضة العربية، بيروت.
9. عبيدات حسين محمد، تجليات الخوف في الشعر الأموي، ط1، وزارة الثقافة، عمان الأردن، 2015.
10. علوش سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1 ، الكتاب اللبناني بيروت، 1985.
11. الفلاحي أحمد علي، الإغتراب في الشعر العربي، ط1، دار عيداء، عمان الأردن، 2013.
12. مرتاض عبد المالك، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، ج 2، دار هومة الجزائر، 2009.
13. مرتاض عبد الملك، معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، دار هومة الجزائر، 2007.

2. المجلات:

14. مزهود سليم، الدلالة النفسية للألفاظ اللغوية في الخطاب القرآني "حسن القول وسيئه أنموذجا" مجلة طبنة للدراسات العلمية الأكاديمية، المركز الجامعي سي الحواس، بريكة الجزائر، المجلد4، العدد1، 2021م.
15. معتز قصي ياسين، دلالات المكان في شعر حامد عبد الصمد البصري، مجلة الفنون والآداب العراق، العدد58، سنة 2020.
16. هامل بشير رمزية، المكان وجماليته، نماذج من الشعر الجزائري المعاصر، مجلة رفوف، جامعة دراية ولاية أدرار، الجزائر، المجلد9 العدد1، 2021.